قصة قصيرة

عبد المجيد الهواس

النبيّ

والبحر بدأ يتعب من وجوه الوافدين. الشاطئ مثقل كالرصاص ولّى ظهره للسماء واستلقى في مغص عنيد. خرج الرجل من البحر واختلط وسط الأجساد ثم استلقى بارتخاء على الرمل. لم يكن يفعل ذلك في الفصول القديمة. على امتداد السنة كان يعتزل وسط الأحجار بعيداً بين النتوءات التي لا تستجلب الأنظار. أو متدثراً بنسيج الخز والطحالب يرتمي على شاطئ مقفر رهيب. وحده.. هذا ما كان يستشعر فيه عظمة انتمائه لفتنة الخارج. أن يطل على امتداد كان يحتويه وحيداً ومتوحداً حتى الأقاصي.. يخرج كيسوع ينهض من نسيج العوسج ليكتشف الناس من جديد. مغترباً يكون. عزاؤه ألا يكتشفه أحد، أن يقرأ في ذاكرة لم يعد يفهمها تفاصيل وجود قديم. وكانت خطة التنكر سارية المفعول.. يخرج بين فتنة الوجوه كمستحم يعود لتوّه من لهفة الماء إلى ملوحة الرمل وحرارته. يحفر لجسده حفرة يواري داخلها ذلك الجزء المحتشم. ألا يلحظ أحد أنه تعرى ليلفت الأنظار أو ليستقطب عسس الشاطئ وهجمات ذوي التقاليد الباطنية الجحيمية التي تقول ضد خدش الحياء. ولهذا كان يسرع إلى حفرته كي يدفع عنه نسيج الطحالب الذي تدلّى من حزامه إلى ما فوق الركبتين. تشكيل لم يكن ليثير الأنظار غير غرابة اكتشاف ذلك. وقد حدث له من قبل أن طارده الرجال على شاطئ لافح ومحرق. ولم يسعفه إلاّ ارتماؤه في مياه امتصّته دون أن يوجد له أثر. بحثوا عنه حتى بين النتوءات القريبة من الشاطئ عله يصعد ليلتقط الأنفاس لكن دون جدوى. كان الماء قد امتصّه ليفهم فيما بعد أن إخفاء بعض المناطق من وحدة الجسد شكل من أشكال الحماية. وظل في سمرة الأعماق منشغلاً بذلك الذي طاردوه من أجله وبسببه ليكتشف أن ما يربط الناس بالعنف والغضب هو ذلك الشيء الصغير المتلبّد بين الفخذين.

ذات شاطئ أو ذات صيف. كان بعض الأطفال قد تحلقوا حوله ثم ما لبثوا أن ركضوا إلى حواشي بعض الصخور يجلبون منها الطحالب ويلفونها حول أحزمتهم. لعبة استهوتهم وراحوا يبحثون داخلها عن ذلك الاختلاف الذي استقطب مقلّدين صغاراً اجتمعوا في دائرة الخارجين عن تقاليد العامة. ثم ما لبثوا أن حصروا أعدادهم في مجموعة محدودة لا يحق لأي كان التمثل بها إلا في حدود موافقتهم. شكلوا بذلك مجموعة تهتم بانتزاع كل من استعمل تلك الشرائط اللزجة الخضراء دون رضى الجماعة. لعبة استهوت الكثير. ولفتت أنظار الرجال والنساء إلى حدود أن ظهرت بعد مدة قصيرة أول تقليعة جديدة في عالم ألبسة السباحة أن انتجت إحدى كبريات مؤسسات الموضة عدداً لا يستهان به من هذه المايوهات الجديدة التي انتشرت برواج كبير على الشواطئ وحمامات السباحة. صورة لم تكن لتقلقه. فقد وجد داخلها الحماية اللازمة. طحالب النيلون والبلاستيك المطاطي. صدريات النساء، قبعات الشاطئ أقمصة الصيف. نعال الأعماق. ووحده ظل في هدأة استلقائه الاعتيادي يبحث في ظلال الوجوه عن قرابته الممكنة أو المتفردة. من أين جاء؟ لم يأت. كان هنا. خرج أو جاء من قرية الماء البعيدة. من موطن متفرد في حدوده وامتداده. مستطيل عبر العالم وشواطئه. أكان الناس يبحثون في شكلهم عن انتماء باطني للرجل المائي الذي لم يكتشفه بعد أحد. أكان نبياً مجهولاً وهم مريدوه؟ دعوة لم تكن لتروّج لها إحدى مؤسسات الموضة أو إحدى شركات السياحة... طفلاً صار، زرقة الماء

تصعد إلى عينيه، حزن ما يخترق تلك النكاية المستبدة التي لم تترك له غير بساطة القدرة على الاستلقاء بين الناس على شاطئ رملي. دون غرابة أو خصوصية. في ظلهم صار مجرد كائن طحلبي لا يمكنه أن يلعب مع طفل استهوته الطحالب أو يمسك بخصر امرأة أو يلعب الورق مع الرجال في ظل خيمة الاصطياف. كل ذلك لم ينتزع منه حق المتعة. أن ينظر إلى الوجوه بغرابة العائدين من جزيرة تبحث عن منتسب ولم تكن مأهولة إلا بفضاءات الامتداد الواسع والصمت الذي يبحث عن هسهسة.

أين سيذهب كل هؤلاء؟ سؤال المساء. سينسحب ذات لحظة إلى الأعماق المفتونة بالجنان المائية وبالصحاري الزرقاء. متوهجاً بكل الأسئلة وبعيون تلك الكائنات التي تستلقي على الرمل أو تخوض في الماء لتبحث لبشرتها عن لون جديد. أو عاشق يبحث في هدأة الصخور عن عيون حبيبة قد تخرج لحظة من صفاء الأفق الممتد حتى أقاصي الماء أو السماء. ولم يكن يفهم من كل تلك الأصوات المتداخلة غير دبيبها الموجع. لظى الكلام الذي دون معنى. وهو الذي كان يبصر في اختمارات عيون امرأة أو رجل تلك الإحساسات الموغلة في بساطة مسكوت عن صفائها تخرج مجلوة متضاربة. كلمات بلا معنى. كل النقائض كانت تختزنها تلك الرؤوس البيضوية المتضاربة تعبيراتها إلى أقصى الحدود. خيانة اللسان لصدق العينين. انقباض الملامح لمداهمة فرح حقيقي في الداخل. اسقاط الرموش في احتشام مزيّف لا يكشف مجون الداخل بامتياز. وماذا دون ذلك؟

عيون الأطفال..!

رعشة اليد الصغيرة على ظهره. رعشة القلب. يد الطفل المفتونة بزبد البحر. هسهسة ابتسامته الصغيرة التي أبرزت سنّين بيضاوين من عاج الأعماق، استلقى الرجل على ظهره ورفعه بين يديه. رأى في عمق السماء وجه الطفل في زرقة الماء. طفل وجد للتوّ سحر الزرقة في عيني هذا الرجل.. كنبوءة صغيرة كان الطفل يخرج حروف الماء بمشقّة «مااااء». وكانت الأم التي تركت لطفلها نشوته الصغيرة قد مُسّت بإغراء الرجل والتحمت في داخلها غيرة الأمّهات. مشت نحوه واستدرجت الطفل إلى حضنها دون أن تفلح في تخليصه من ذلك الانجذاب الغامض لعيني ذاك الرجل.

ترك الطفل بصمات أرجله على الرمل. حركاتها الدائرية. عينيه الشفافتين حد الشرايين... واقتطع الرجل وريداً صغيراً من دواخله وصبه في أنفاس ذلك الطفل المتورد كقرنفلة. لم يستطع أن يبقيه إلى جانبه، ذات صيف لم يستطع أن يدرك إن كان الكائن ينتسب لشيء أكبر من أن يكون عبداً لمالكه. أكان الطفل ملكاً لامرأة أو رجل! ظل ساهماً حين اقفر الشاطئ. ولم يقم ولم يسر نحو البحر ولم ينتبه لسماء قُدّت من ظلام. لا شيء غير ذلك الحلم أن يرى الطفل ثانية إلى أبعد الوجود.

طفل. وراح يحلم أول المساء بالسواحل.. كرة الماء تسقط في حوض السماء. نجم أزرق يلتمع فوق الأصابع. فراش ملون. عيون كبيرة تتوحد في وجه ذاك الرجل. رآه يركض فوق الماء. بساط لامتناهي الامتداد. سار يحبو... دغدغة الماء في الساقين. انغماسه في تدفق الأمواج.. دافئة.. داف.. ئة.. ة..

وكان البحر قد بدأ يتعب من وجوه الوافدين. الشاطئ مثقل كالرصاص ولّى ظهره للمساء واستلقى في مغص عنيد. لاح له الطفل منشغلاً في لجة الماء يسبح في الزبد الأبيض. لم يسع إليه. كان يخشى أن تأتي المرأة وتحمله بعيداً... ولم يَرَ المرأة. رأى ذات لحظة كيف تقاذف الناس نحو البحر.. كلهم.. كلهم.. صرخات وأفواه وعيون ورجال والطفل لم يره... قام وارتمى نحوهم. ودموع وصراخ وأفواه. كأن كل الذين حوله يبحثون عن خطاه.. ارتمى بعضهم في الماء ثم عاد.. لاحت له القرية البعيدة في الأعماق. كسمكة فاتنة تقدَّم وارتمى نحو ذلك النداء الخافت.. ذات لحظة رفع الطفل صغيراً.. رأى تلك الوجوه تقف مشدوهة وفاترة.. ثم ما لبث أن عانق الطفل.. ضمه إلى صدره وانساب نحو البعيد.

الرباط